نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

من كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جد والدي عبد الملك بن سعيد وهو إذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر إلى أن استبد بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وقصده سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الأندلس أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحجاري وصنف له كتاب المسهب في غرائب المغرب في نحو ستة أسفار وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ثم ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحجاري وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد وأضافا له ما استفاداه ولم يزل يزيد إلى أن استبد به محمد فاعتنى به أشد اعتناء ثم استبد به والدي - وكان أعلمهم بهذا الشأن - وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أنني أذكره يوما وقد نوه به ابن هود وهو ملك الأندلس وولاه الجزيرة الخضراء فأعلمه شخص أن عند أحد المنسوبين إلى بيت نباهة كراريس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها الذين تحتوي عليهم دولة بني عبد المؤمن فأرسل إليه راغبا في استعارتها فأبى وقال على يمين أن لا تخرج عن منزلي وقال إن كانت له حاجة يأتي على رأسه وكان جاهلا فلما سمع والدي ضحك وقال سر معي إليه فقلت له ومن يكون هذا حتى نمشي له على هذه الصورة فقال إني لا أمشي له ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أنفت أن أمشي إليهم قلت لا قال فإن الأثر ينوب عن العين فمشينا إلى منزل الرجل فوالله ما أنصفنا في اللقاء فلما قضينا منها الغرض صرفها إليه والدي وشكره وقال هذه فائدة لم أجدها عند غيرك فجزاك الله تعالى خيرا ! ثم انفصل وقال ألم تعلم يا بني أنني سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية وإن هذا والله أول السعادة وعنوان نجاحها